ابن خلدون

معرض

ابن خلدون

البحر الأبيض المتوسّط في القرن 8هـ/14م

JUNTA DE ANDALUCIA
CONSEJERIA DE PRESIDENCIA
CONSEJERIA DE CULTURA

Fundación
El legado andalusí

Sociedad Estatal para la
Acción Cultural Exterior de España

العلم والسلطة والمدارس في زمن ابن خلدون

فرخيليو مارتينيث اينامرادو
د. في تاريخ الأندلس

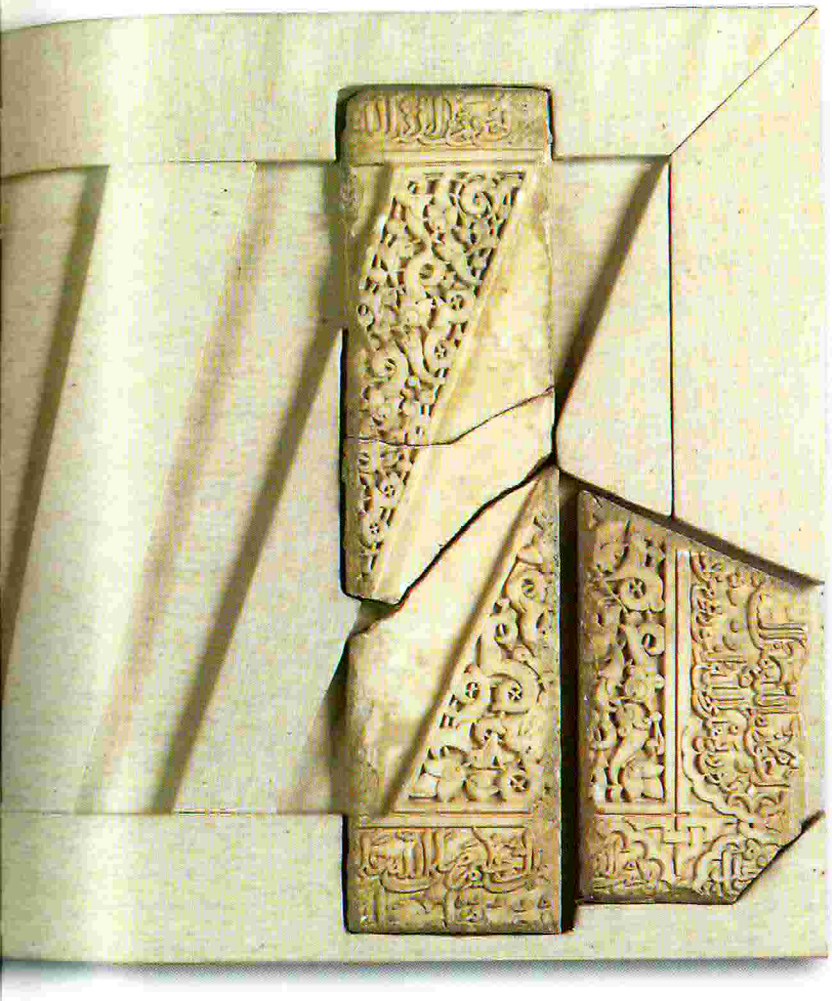

في أي مجتمع إسلامي في العصور الوسطى كان التعليم مجموعة من القواعد روجت لنظام تعليمي عام يعتمد على تعميم المبادئ الإسلامية و يحتل مكانه أساسية في المجتمع. وعلى الرغم من التوترات التي شهدها القرن الرابع عشر فإن التغيرات التي حدثت خلاله في نظم التعليم نتيجة ظهور المدارس زادت من قيمة النظام التعليمي كنظام يحافظ على الأمن الاجتماعي في هذا العصر.

عالم وباحث اجتماعي كابن خلدون، استطاع أن يدقق فيما حوله، لا يفوته تحليل ومدارسة أهمية هذا الموضوع، وبخاصة إذا قلنا انه لم يكن ليفوته شئ مما يدور في عصره. ونجد أن ما اولاه هذا العالم إلى المدارس توضح أهميتها، ففي الستين فصلا التي تكون الجزء الخامس من مقدمة ابن خلدون خصص ثلثاها لشرح معنى التعليم منظرا لما يعرف حاليا بنظرية التعليم، وهو ما يجعل من ابن خلدون احد ممنهجي الفكر التعليمي في العالم.

انطلاقا من مقدمة ابن خلدون، نجد أن النظام التعليمي لم يتغير كثيرا أو يتقدم بشكل ملحوظ في الدول العربية والإسلامية منذ العصور الوسطى وحتى يومنا هذا. ولا نضيف شيئا إذا قلنا أن الانحطاط الذي يعانيه المجتمع الإسلامي منذ ذلك العصر هو نتيجة لعدم التقدم في النظام التعليمي. إبن خلدون في فصل يدعى في تعليم الولدان اختلاف مذاهب الامصار الاسلامية في طرقهٌ وضع أسس النظام التعليمي الذي لم يتغير تقريبا، بل نستطيع القول انه تجمد منذ القرن الرابع عشر دون تغير يذكر حتى بداية موجة الاحتلال الأوروبي للعالم العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر.

ابن خلدون وكعادته فسر و بوضوح مبدأ استخدمه الحكام المسلمون بشكل متكرر ألا وهو أن التعليم وكل ما يتعلق بتنظيم الحياة الاجتماعية مصدره الأوحد هو القرآن الكريم وكذلك كطريق وحيد للحكم بحفظه منذ الطفولة. من جهة أخرى، نجد أن منهج ابن خلدون قد اختلف عن المنهج التعسفي في التعليم وتبنى منهج الثقة والاحترام المتبادل مع الطلبة، وهو ما توضحه في كتاباته السابقة لعصرها.

قال ابن خلدون: «في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم و ذلك ان ارهاف الحد بالتعليم مضر بالمتعلم سيما في اصاغر الولد لانه من سوء الملكة. و من كان مرباه بالعسف و القهر من المتعلمين

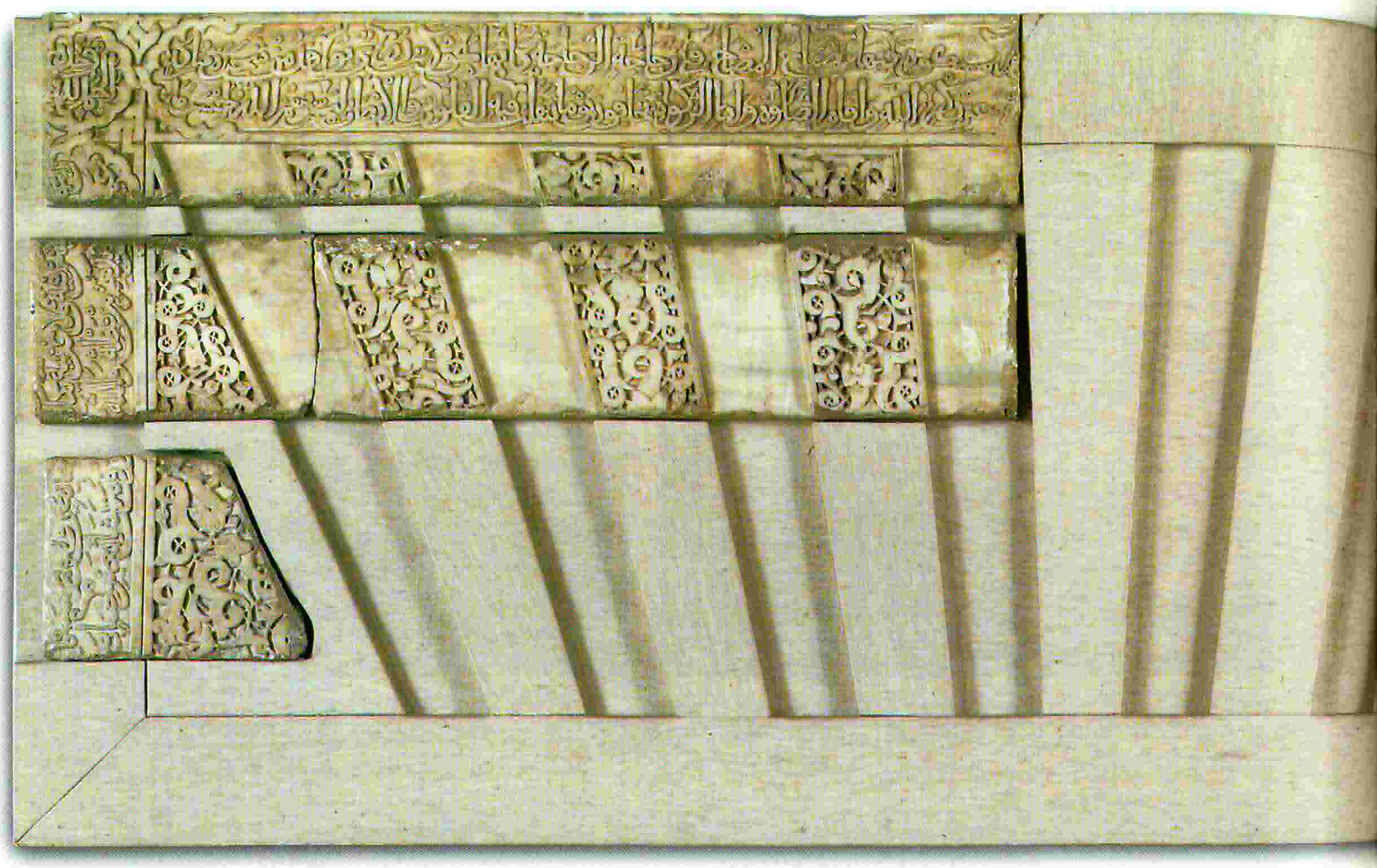

أسكفة (عتبة عليا) من مدرسة غرناطة.

او المماليك او الخدم سطا به القهر و ضيق عن النفس في انبساطها و ذهب بنشاطها و دعاه الى الكسل و حمل على الكذب و الخبث و هو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه و علمه المكر و الخديعة لذلك و صارت له هذه عادة و خلقا و فسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع و التمرن».

و الجدير بالذكر أن في هذا الاستعراض الذي يوضح مفهوم التعليم في تاريخ الحضارات وخصوصا في الحضارة الإسلامية نتعجب من أن ابن خلدون لم يذكر على الإطلاق التحديث الجاري في الغرب الإسلامي (الأندلس و المغرب) بداية من القرن الثالث عشر من خلال نقل نظام المدارس من الشرق إلى الغرب من قبل حكام الغرب الإسلامي كالنصريين والحفصين والمرينيين، هذا الإسقاط الذي قد يكون متعمدا أو غير ذلك، يشير إلى قيمة ما أولاه ابن خلدون إلى نظام المدارس في خنق العلم كما أوضح الابيلي في القرن الرابع عشر.

من الواضح أنه ومن خلال المدارس نشأت في المغرب فكرة سيطرة الدولة على التعليم، من هنا فإن التعليم تأثر بالسلطات المحلية وفي إطار قواعد محددة من قبل السلطة السياسية. على الرغم من أن الوظيفة الأساسية لتلك المدارس كانت تدريس القرآن فإنه كثيرا ما اعتبر المؤرخون أن المدارس عبارة عن دار للطلبة فقط ليس إلا. وهنا

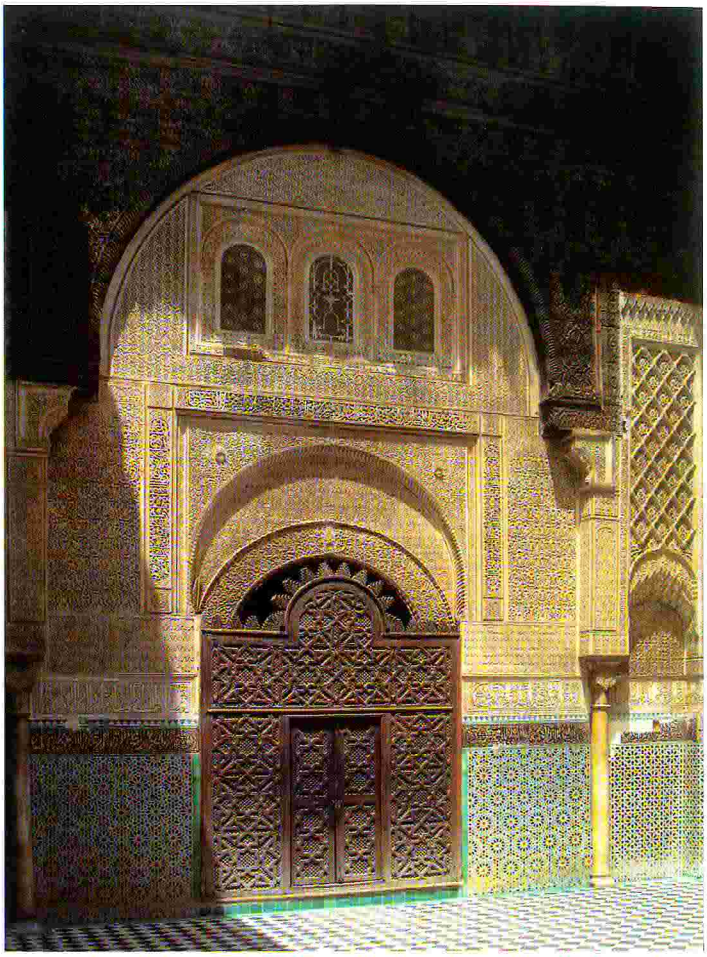

مدرسة البعنانية بفاس، شُيّدت بين 1350 و 1357 بأمر من السلطان المريني أبي عنان.

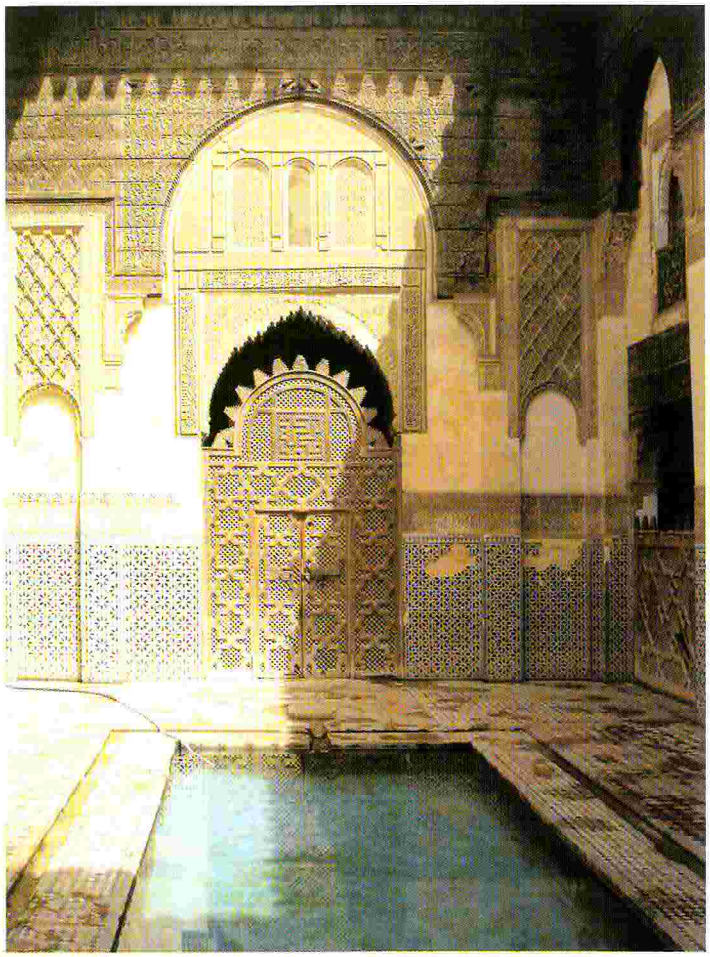

مدرسة الصهريج بفاس.

نرى أن وجهتي النظر سالفتي الذكر بالرغم من أنهما حقيقيتان إلا أنهما حجبا الوظيفة الرئيسية للمدارس، و نضيف إن كلتا الوظيفتين لا توضحان الوظيفة أو المعنى الرئيسي للمدرسة.

بالطبع، كانت المدارس مراكز متخصصة في خلق سلالات النخبة الحاكمة، والتي كثيرا ما كانت تبرر حقها في الحكم عن طريق تلك المدارس، وهذا يتضح في الدراسات التي أجريت سابقا في المغرب. تلك الدراسات تؤكد ودون استثناء رؤية المدارس على أنها مراكز تكوينية للقادة، مراكز تكونت بواسطة حكام متعددين منذ القرن الثالث عشر. إلى الحد الذي جعل كولبي(Golvin) يتحدث عن المدارس المرينية كـ *«un nouvel 'outil' du pouvoir»* تهدف إلى *«à former des fonctionnaires de tous rangs et à controler ainsi les futurs serviteurs du royaume»* بالإضافة إلى القضاء على الملحدين والموحدين *«jusqu'au dernier germe»*.

ساعدت حركة الأموال في الوقف الخيري المنتمي للمدارس المغربية المختلفة على سرعة انتشار المدارس، بحسب رأي ابن مرزوق «بفضل ابوحسن كمؤسس للمدارس كم من الأشخاص كانوا يتكسبون خلال فترة تأسيس تلك المدارس». خدمة يعطيها الاحباس [الاوقاف] والتي يدفع من خلالها أيضا للطلاب والمسئولين والحراس والمؤذن والإمام و الناظرو الشهود والخدم بكرم شديد.

في ذات الوقت فإن المدارس كانت تعني إمكانية ترقية المجتمع وبخاصة للطبقات الدنيا من المجتمع المدني والريف بفضل نظام المنح والمساعدات التي تقدمها. من الواضح أن السلالات المغربية، وبخاصة الفاسية منها، ضمنت من خلال تلك المراكز تكوين موظفين متخصصين في اللغة العربية، بسبب ما تعانيه هذه اللغة من ضعف في المغرب الأقصى كما يشير الى ذلك ابن خلدون و بذكاء.

و نشير هنا إلى أن المدارس كمؤسسات ظهرت في الشرق بهدف أن تكون دورا للحكمة تدرس فيها علوم القدماء كعلوم الفلك والطب والصيدلة والحساب والتي كانت ينظر لأهميتها على قدر العلوم الإسلامية (قراءة وتفسير القرآن والسنة والفقه). والحقيقة أن المدارس كنظام تعليمي في المشرق والمغرب خلق شعبية لها وهو ما أوجد حالة من عدم الاستقلالية للعلماء، ومنذ ذلك الوقت فأنهم في حالة خضوع للسلطة السياسية والتي تتحكم بهم لصالحها عن طريق تلك المراكز التعليمية.

منذ القرن الثاني عشر و حين قامت تلك المدارس بتوحيد الكتابات الفقهية والحديث انتهى عصر التعليم في المساجد الصغيرة وبيوت العلماء و ضاعت الاستقلالية الثقافية في المشرق، فأن توضيح أسباب ظهور المدارس والتي تفهم عادة

على أنها نتيجة النهضة السنية التي وجدت طريقها بداية القرن الحادي عشر ضد الحركة الشيعية التي كانت ناشطة آن ذاك لكن هذا الرأي موضع شك بسبب ظهور تفسيرات جديدة مختلفة. يلاحظ، وعلى العكس من ذلك، انه وقبل تبني المدارس في المدن عن طريق نظام الملك، في المنطقة الفارسية كانت تلك المدارس تمثل مراكز متخصصة في الدراسات الشرعية و الحديث وفي بعض الأحيان الصوفية، حقيقة أن الغالبية منها كانت سنية ونادرا ما كان هناك مراكز شيعية بهذه المواصفات. لكن وفي كل الأحوال من الضروري توضيح العداوة التي واجهها الشيعة من قبل السلاجقة. والذي نعرفه لا يسمح لنا بتأكيد تلك العداوة تجاه الشيعة من قبل أي من الذين كانوا في هذه الفترة.

حقيقة انه مؤخرا استغلت المدارس من قبل بعض الدول بغرض مواجهة الشيعية ومواجهة الفلسفة الافتراضية، هذا لا يعني انه في وقت تأسيسها كان ذلك هو الغرض الرئيس منها لأن تأسيس المدارس قد بدأ قبل ذلك بعقود (خصوصا في خراسان، حيث كان نظام الملك، هناك قد بدأت مدارس في القرن العاشر الميلادي) على أية حال، وبغض النظر عن هذه القضية فلاشك من أن انتشار المدارس أسس في حد ذاته ل

«the days of uncontrolled proliferation in Muslim scholarship were over. So were the days of ulama independence, at least to the exent that scholars holdings appointments in madrasas, whether privately and royally patronized, were subject to dismissal» (R. Bulliet)

و يتصادف أيضا مع ما تواتر من أناس قد عاشوا هذه الظاهرة. في الشرق، فإن التأثير الإيراني خاصة في الجيلين الأولين للأساتذة قد كان واضحا كما يقول بوليت (Bulliet) على العكس من ذلك في الغرب الإسلامي.

أن السرعة التي أحدثها انتشار هذه المراكز التعليمية تؤكد مدى اتفاق عملها في خدمة السلطة الحاكمة في ذلك العصر، على الرغم من انه في المشرق يوجد جزء كبير من تلك المراكز كانت تحت رعاية دوائر غير حكومية. ففي المغرب استطاعت السلطة أن تفهم و بسرعة ضرورة وضع تلك المدارس في خدمتها لتحقيق الأهداف التي أقامتها من اجلها، لذا وفيما عدا حالتين فقط كانت المدارس مؤسسات رسمية في المغرب الإسلامي.

إن أوائل المدارس التي أسست كانت في خراسان في القرن العاشر، وانتشارها كان على يد الوزير السلجوقي نظام الملك ثم تبعه العديد من الحكام بعدها في المشرق في القرن الحادي

انطلاقا من مقدمة ابن خلدون، نجد أن النظام التعليمي لم يتغير كثيرا أو يتقدم بشكل ملحوظ في الدول العربية والإسلامية منذ العصور الوسطى وحتى يومنا هذا

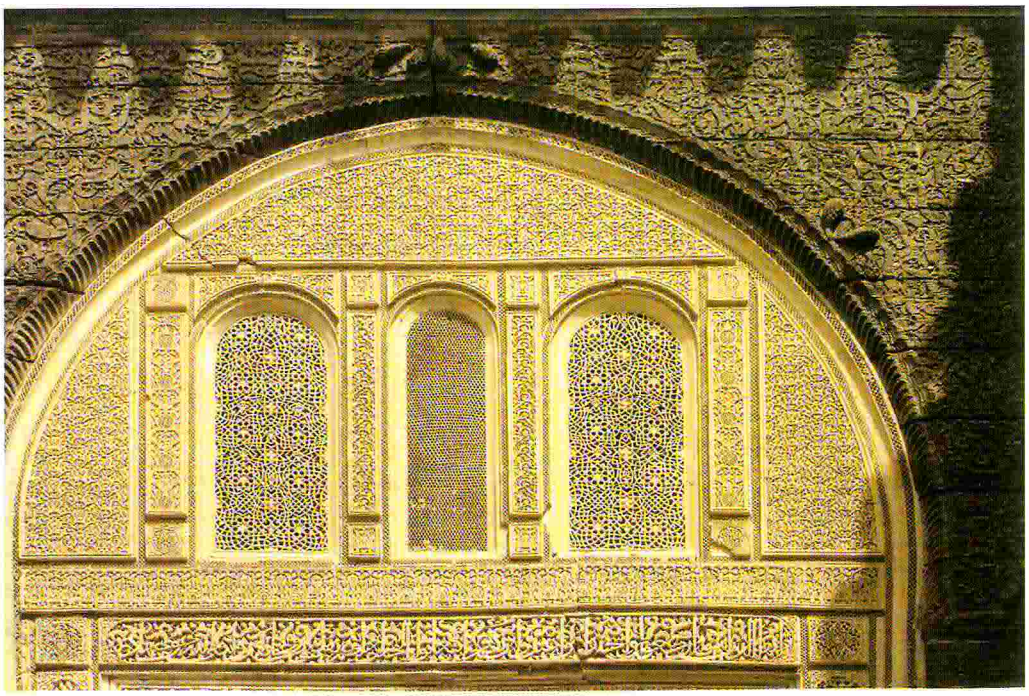

مدرسة الصهريج بفاس، بنيت في القرن 14.

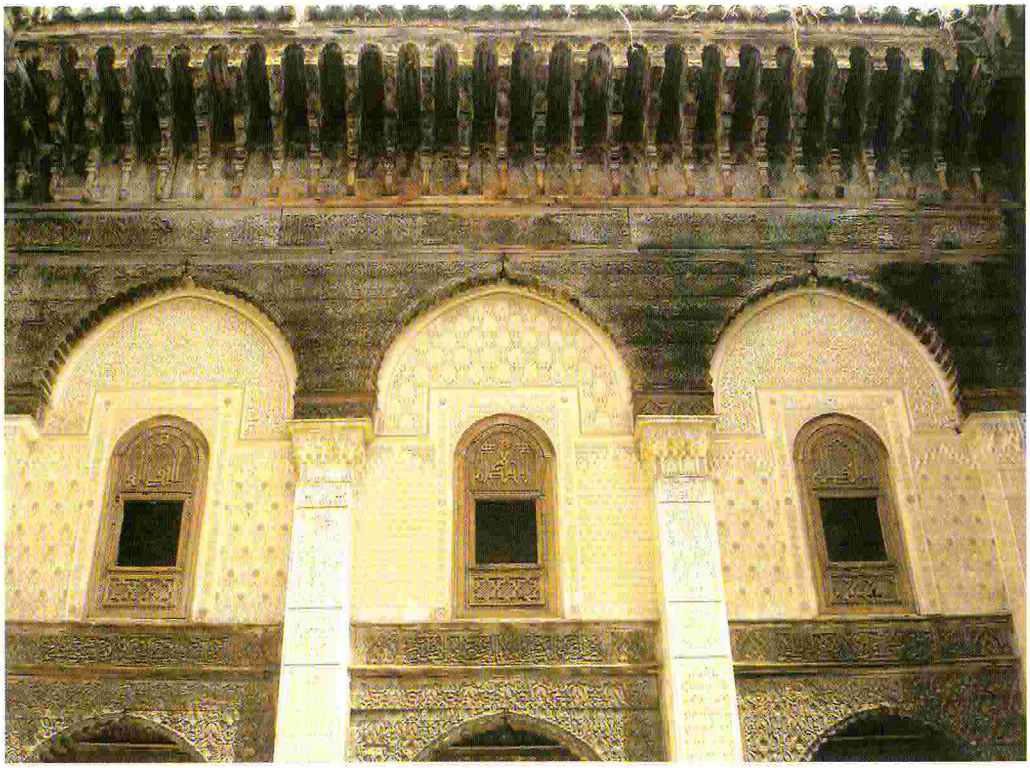

مدرسة العطّارين بفاس.

إن أوائل المدارس التي أسست كانت في خراسان في القرن العاشر، وانتشارها كان على يد الوزير السلجوقي نظام الملك

عشر والثاني عشر، في ذلك القرن –الثاني عشر– تضاعفت أعداد هذه المدارس بخاصة في مدن كبغداد ودمشق. ففي العاصمة السورية كانت البداية في العام 1090/482، بعدها بقرن واحد كان هناك ما يزيد على العشرين مدرسة، وفي 1260/658 ارتفعت إلى ثلاثة وخمسون مدرسة، أما في القاهرة فكانت أول مدرسة في عام 1170/565، وفي المغرب العربي كان الانتشار أكثر سرعة مدفوعة بواسطة المرينيين في 1252/652 فقد تأسست أول مدرسة في تونس وهكذا تبعها العديد من المدارس بتشجيع من الحفصيين. من جهة اخرى وفي المغرب الأقصى، إذا استثنينا المدرسة الأولى في الغرب الإسلامي (مدرسة أبي الحسن الشاري) والتي تأسست تحت رعاية هذا الشخص في 1238/635، فان المدرسة الرسمية الأولى في منطقة الصفريين من فاس افتتحت سلسلة المدارس في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب في 1271/670 في أواسط القرن الرابع عشر كانت فاس تحوي سبعة من تلك المراكز ومن هذا التاريخ كما يقول ابن مرزوق استمر أبو الحسن علي في توسيع إقامة المدارس في كل المدن المغربية (مكناس ، سبتة، مراكش، سلا، انفا، طنجة، الزمور، تازة).

وأخيرا وفي ظل حكم السلطان النصري في غرناطة تخلفت ظاهرة المدارس و نقلت بشكل منسوخ من النظام الموجود في المغرب. وبرغم انه في مدينة مالقة منذ 1340/740 كانت هناك مدرسة مرتبطة بالتجمع الصوفي والتي ترأسها الساحلي المعمم، إلا انه لم تكن السلالة حاكمة في عاصمة الأمارة قد ظهرت حتى 1349/750، والتي منحت الأندلس أخر نفحة من نفحات التقدم الثقافي.

رافِدة خشبية، مدرسة سبتة القرن 14. متحف سبتة.

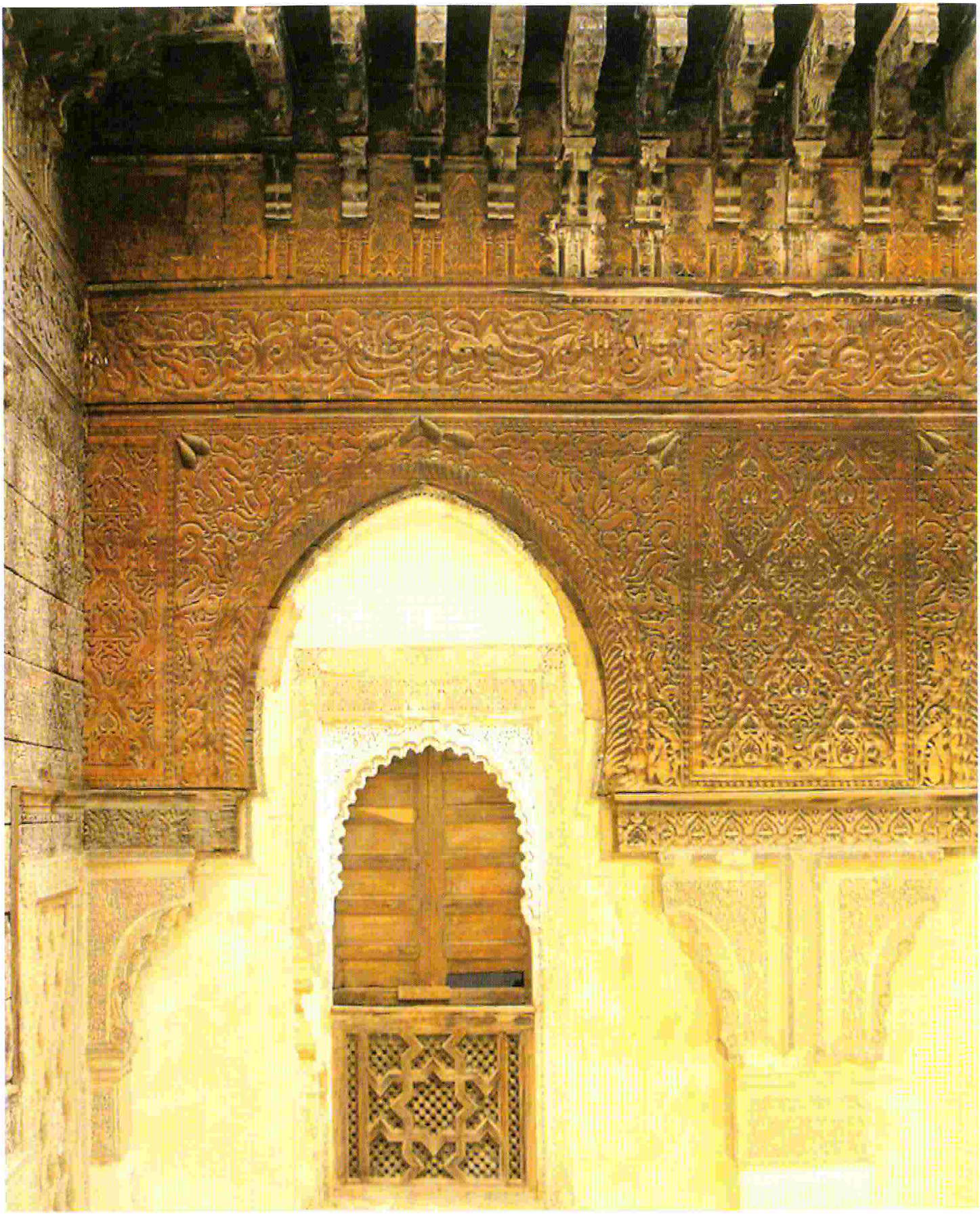

جزء من مدرسة الصهريج بمدينة فاس.